





# منهج الأمير شكيب أرسلان في بناء الوحدة العربية

فايد بشير<sup>(\*)</sup>

أستاذ التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،  
جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر.

## مقدمة

أبدى الأمير شكيب تفاعلاً كبيراً بإمكانية تجسيد حلم وفكرة الوحدة العربية، بصورة عملية. فخلال وجوده في برلين، كتب مقالاً في شهر آب/أغسطس ١٩٢٥، جاء فيه أنها ليست قضية حكام أو ملوك، وإنما هي قضية الأمة العربية التي ينبغي أن تكون مصالحها فوق كل اعتبار، وأنه خير للإنسان أن يكون راعياً للضأن في عزّ قومه من أن يكون سلطاناً عظيماً على قوم مذلولين. فهو يتساءل: هل من سلطان لمن هيمن الأجنبي عليه، وقاده كما يقاد البعير؟ وقد جعله موقفه هذا مطارداً من قبل تركيا، لاهتمامه بشؤون العرب، وهجومه الشديد على حكامها الذين تنكروا للعرب والمسلمين<sup>(١)</sup>.

ومبعث تفاعله أن العرب أمة كاملة تتوفر على جميع العناصر التي يتطلبها كيان الأمم من الناحيتين السياسية والاجتماعية؛ فهي أحادية العرق واللسان، وغالبيتها تدين بدين واحد، ولها مصالح ومنافع وآمال واحدة. ولكن الذي أضعف جانبها وأخرها، وأعاق لحاقها بمواكب المدنية، هو تفككها واستعمار الأجنبي لها. ولذلك، اعتبر نفسه «جندياً من جنودها له ثلاثة أهداف جلية وواضحة تمام الوضوح: الأول هو الاتحاد، والثاني هو التحرر، والثالث هو السير في مواكب النهضة والعلم والبحث»<sup>(٢)</sup>.

وجلي أنه وضع الوحدة على رأس الأولويات، فبدونها لا يمكن أن تتحرر البلدان العربية، الواقعة غالبيتها تحت الهيمنة الاستعمارية، وبدون استقلال وسيادة لا يمكن

bachir.faid@gmail.com.

(\*) البريد الإلكتروني:

(١) في هذا الصدد، انظر: أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣)، ص ٣٩ - ٤٠، و William L. Cleveland, *Islam and the Campaign for Islamic Nationalism*, Modern Middle East Series (London: Al-Saqi Books, 1985).

(٢) محمد علي الطاهر، ذكرى الأمير شكيب أرسلان (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣)، ص ٢٤٢.

الحديث عن النهضة والرقي والتقدم. إنها معادلة ثلاثية الأطراف، وكل طرف منها مرتبط بالطرف الآخر إلى أن تتحقق كاملة. ولكي تتحقق الوحدة الحقيقية، اشترط شكيب: تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم، وغرس الفكرة في الأذهان، ونبد الخلافة الشخصية، والتدرج فيها.

## أولاً: ضرورة تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم

يرى الأمير شكيب أرسلان أن كل إنسان يحرص على التمسك بعاداته وميَّزاته القومية، ولا شك في أن الذي يدفعه إلى ذلك هو الشعور بالعرْزة والإباء اللذين تشبعت بهما روحه. لقد سئل الروائي الفرنسي بيير لوتي (Pierre Loti) (\*)، وهو مشرف على الموت، عن أي الأمم التي يحب؟ وكان من المتوقع أن يذكر الأتراك لكتاباته الكثيرة عنهم، وإعجابه الشديد بهم، ولكنه أجاب: «العرب لأنهم قوم متشبثون بشخصيتهم»، وقيل إنه قال: «لأنهم لم يتغيروا منذ آلاف السنين»<sup>(٢)</sup>.

ولذلك وجدناه، حينما قصد في العام ١٩٢٩ البقاع المقدسة حاجاً، يعرب عن فخره بأنه عربي، حيث قال إنه عربي في بلاد عربية حرة، وأنه في غاية السعادة لأنه خاضع لحكومة عربية بحتة، يوجد على رأسها مسؤولون هم منه وهو منهم، ومعنى ذلك بالنسبة إليه أنه خاضع لنفسه وليس غيره. ومما قاله أيضاً، تكملة لذلك، أنه شعر في الحجاز أن راية عربية تظله.

وهو فخر يفترض أن يصدر عن كل العرب الذين أوصاهم بالمحافظة على قوميتهم ومقوماتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وحذرهم من تقليد الإفرنج تقليداً أعمى، أو تتبّع خطواتهم في شيء يخصهم بدون تبصر.

على أنه لم ير مانعاً من أخذ النافع منهم، مع التمسك بشخصية الأمة ومميزاتها وخصائصها التي لا تقوم إلا بها، وتمييزها من الأمم الأخرى. فإذا كنا فعلاً نريد أن نصبح أوروبيين، فلنقتفِ آثارهم، في البحث والتمحيص، ونحذُ حذوهم في تقدير الأمور قبل اعتمادها، وطرق أسباب المدنية، ونهج منهجهم في البحث العلمي إلى ما استطاعوا تحقيقه من إنجازات، بدون أن يتخلوا عن مقوماتهم القومية، من عادات وتقاليدهم وأذواق التي بقيت كما هي ولم تتغير، رغم التقدم المذهل. فلنعمل نحن مثل ذلك: «إذا كنا حقاً نريد أن نتفرنح، فلنقتدِ بهؤلاء القوم في البحث والتمحيص، وعدم قبول نظام ولا قانون إلا بعد قتل فائدته خبراً، وإذا كنا نريد أن نتفرنح، فلنحذُ حذو هؤلاء القوم في عروجهم معارج المدنية كلها، وسلوكهم طرق التحقيقات العلمية، إلى آخر ما وصلت إليه، مع حفظهم لعاداتهم

(\*) بيير لوتي (Pierre Loti) (١٨٥٠ - ١٩٢٣) بحار وروائي فرنسي، قام بوصف البحر والبلدان البعيدة في رواياته، له روايات عديدة منها: صيادو أيسلندا ورحلة إلى الشرق.

(٢) الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص ٦٨ - ٦٩.

ونزعاتهم وأذواقهم وبقائهم كما كانوا إفرنجا. إذا كنا فعلاً نريد أن نتفرنح، تحتّم علينا أن نبقي عرباً»<sup>(٤)</sup>.

ولقد أسهب الأمير شكيب أرسلان في الحديث عن محافظة الشعوب الأوروبية على قوميتها، فذكر الإنكليز الذين يرغبون في أن يبقوا إنكليزاً، والفرنسيين الذين يرغبون في أن يبقوا فرنسيين، والألمان الذين لا يريدون إلا أن يكونوا ألماناً، والإيطاليين الذين لا يقبلون أن يكونوا إلا إيطاليين، والروس منتهى غايتهم أن يكونوا روساً، وهكذا. ومن الأمثلة التي يرى أن لها تأثيراً نفسياً كبيراً: الأمة الأيرلندية الصغيرة المجاورة للإنكليز الذين بذلوا كل ما يمكن تصوّره من الجهود مدّة سبعمئة عام، بغية دمجهم في المجتمع الإنكليزي، لكنهم قاوموا كلّ تلك المحاولات بشدّة، رافضين أن يصبحوا إنكليزاً، وبقوا أيرلنديين متمسكين بلسانهم وعقيدتهم وأذواقهم وعاداتهم.

والأمر ذاته بالنسبة إلى الأمم الصغيرة كـ «البروتون» و«الباشكنس» جنوبي فرنسا الذين احتفظوا بقوميتهم أمام العرب، ثمّ الإسبان، ثمّ الفرنسيين، رغم أن عددهم الإجمالي مليون نسمة فقط، وما يزالون، كما كانوا في السابق، على لغتهم وأزيائهم وعاداتهم وكل أوضاعهم. وهناك «الفلمنك» الذين ظلّوا يكافحون من أجل جعل اللغة الفرنسية لغتهم القومية، والثقافة الفرنسية ثقافتهم، حتّى أجبروا بلجيكا على الاعتراف لهم بكلّ ذلك.

وفي سويسرا يوجد مليونان وثمانمئة ألف يتكلمون الألمانية، وأكثر من مئتي ألف ناطقين بالإيطالية، بقوا محافظين على لغتهم وقوانينهم ومنازعتهم، بالرغم من اتحادهم في المصالح السياسية، وعيشهم في دولة اتحادية.

أما في بلاد الدانمارك والاسكندناف وهولندا، فتنتشر فروع عرقية ألمانية خالصة، ومع ذلك لا تريد الاندماج ولا التخلي عن قومياتها السالفة الذكر. أما التشيك، فقد بقوا مئتين من السنين تحت الحكم الألماني، بدون أن يصبحوا ألماناً، وتمكّنوا من تحقيق استقلالهم السياسي بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، بعد أن مهّدوا لذلك بالمحافظة على لسانهم وتمييزهم العرقي مدّة خمسة قرون.

ومن الأمثلة أيضاً التي ساقها الأمير في هذا الصدد، أمة المجر التي، رغم أن الألمان نشروا بينها علومهم وطوّروها، إلا أنهم عجزوا عن إدماجها في الأمة الألمانية، فتجدهم أكثر الأمم حرصاً على لغتهم المغولية الأصلية وعلى قوميتهم المجرية. أما الأمة البولونية، فقد حاول الروس الذين حكموها قرابة الثلاثة قرون، إدخالها في الجنس الروسي، وحمل أفرادها على نسيان قوميتهم الخاصة، بحجة أن الجنس السلافي يجمع بين البولونيين، بدون جدوى، حيث أصبحوا أمة مستقلة بنفسها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، لأنهم لم يستجيبوا لكلّ تلك المحاولات. والخيبة نفسها وجدها الروس، مع سكانهم الاستوائيين ذوي الأصول المغولية، ومع أمم بحر البلطيق.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٩.

كما حافظ «الكرواتيون» على استقلالهم العرقي، رغم أنهم محاطون بأمّتين كبيرتين: اللاتين والجرمان؛ والصرب مع تركيا التي ظلت سيدة عليهم لعدة قرون؛ و«الأرناؤوط» مقابل اليونان والصقالبة (السلاف)؛ والبلغار أمام الروم والسلاف واللاتين والأتراك<sup>(٥)</sup>.

فقد باءت بالفشل كلّ المحاولات الرامية إلى إدماج تلك القوميات الصغيرة في قوميات غير قومياتهم «لأنّ كلّ شعب مهما كان صغيراً لا يرضى بإنكار أصله، ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي». وقد برّر الأمير شكيب أرسلان استشهاده بأمثلة من أوروبا، لكي لا تقول الفئة الجامدة من العرب إنّها لا تريد أن تجعل أمماً متأخرة قدوة لها. فالأمم التي استشهد بها كلها أوروبية، بلغت مبلغاً عظيماً في العلم والرقى والتمدن، وتحوز على عدد هائل من الجامعات والأكاديميات، والجمعيات العلمية، والجيش والأساطيل.

ويضيف أن على العرب أن يأخذوا العبرة أيضاً من الأمة اليابانية التي تدرّجت في سلّم التقدم، إلى أن تمكّنت من الوصول إلى ما وصلت إليه أوروبا، من غير أن تفرط في لسانها وأدائها وحرّيتها ودينها، وكل ما يقع في دائرتها القومية. فقد اندمج وتناغم الياباني العصري بسرعة كبيرة ومذهلة مع مستجدات الحياة العصرية، وظلّ مع ذلك دائم العودة إلى ماضيه، والتمسك الشديد بقوميته، غير ملتبّ لنداء التغريب (Occidentalisme)، لأنه لا يريد أن يأخذ من الغرب إلا ما هو ضروري، لكي يقارع سائر الأمم بنجاح، وهي لا شكّ تجربة جديرة بالاهتمام والاتباع من قبل العرب، كما يقول الأمير شكيب أرسلان<sup>(٦)</sup>.

وعلى هذا الأساس، بيّن الأمير شكيب أرسلان أن اقتفاء أثر الأمم الغربية في مجالات العلوم والمعارف والتقنيات، لا يمثل عائقاً على الإطلاق أمام الحفاظ على المقومات الشخصية للعرب بكلّ مكوّناتها. ومن ثمة، فقد ردّ بوضوح على أصحاب الرأي القائل: إنّ اللحاق بالركب العالمي المتقدم، ركب الدول الصناعية والأمم الراقية<sup>(٧)</sup>، لن يكون إلا بالاستجابة للتغريب الذي يعني الانسلاخ عن كلّ الموروث اللغوي والتاريخي والأدبي، والديني والحضاري المكتسب<sup>(٨)</sup>، واستبداله بالقيم الجديدة، الوافدة مع التقنية والمعارف المجلوبة من الغرب. وحتّى لو كانت قيماً شديدة التباين مع القيم الذاتية العربية، فقد نبئت في بيئات لا تمتّ بأية صلة بالبيئات الجديدة التي يراد لها أن تستزعر فيها.

ومن مظاهر عناية الأمير شكيب أرسلان بالعروبة، اهتمامه بالبحث في أصل العرب، وسبب تسميتهم، واعتزازه باللغة العربية، الأمر الذي كان يدفعه دائماً إلى التحدّث

(٥) شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟ (الجزائر: مطبعة رحاب، ١٩٨٩)، ص ٨٩ وما بعدها.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩١ وما بعدها.

(٧) محمّد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ط ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥)، ص ٨٧.

(٨) طارق البشري، ماهية المعاصرة، ط ٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦)، ص ٣٧.

والخطابة بها في كلّ الدول الغربية التي سافر إليها أو قام بزيارتها، رغم إجادته لأكثر من لغة أجنبية كما هو معروف<sup>(٩)</sup>، وتمجيده في كلّ مناسبة أو موقف لأمة العرب التي قال عنها إنّها لم تتأهب للنهوض والاتحاد، ولم تتطلع إلى هاته الدرجات السامية، لولا تاريخها المشرق الذي يشهد على أنّها أمة عريقة من حقها أن تطمح نحو الأفضل في الحاضر والمستقبل<sup>(١٠)</sup>.

وللإشارة، فإن اللغة العربية التي كانت لدى العرب القدامى مصدراً للفخر والاعتزاز، والشعور بتفوّقها، وقدرتها على التعبير عن أغراضهم ومتطلبات حياتهم الاجتماعية، والعقدية والعلمية، وعاملاً لارتقائهم الحضاري، خلال العهد الإسلامي، أصبحت أثناء عصور الانحطاط والغزو الاستعماري مستهدفة باسم الحداثة والتغيير، ومن شدة الهجمات التي تعرّضت لها، تحولت إلى لغة تعاني الغربة لدى أهلها الذين كانت فئة لا بأس بها منهم، تنظر إليها بعين الاحتقار والازدراء، مفضلة لغة الغازي والمستعمر التي مثّلت لها قمة التفوّق اللغوي، متجاهلين أن التمسك باللغة القومية، وإن اعترأها طارئ الضعف والاضمحلال، هو أفضل بكثير من استبدالها بلغة أخرى أجنبية، وإن بدت متفوّقة وراقية.

إن اللغة ليست أفضلاً وتعايير وحسب، وإنما شعور وإحساس مشترك، وثقافة وحضارة وتفكير وشخصية، بكلّ قسماتها وسماتها وذاكرتها وفلسفتها ورؤيتها. ومثلما تضعف الأمة وتراجع، فاللغة تضعف وتراجع أيضاً، ومن ذلك فمن غير المنطقي تبرير التخلّف بتخلّف اللغة<sup>(١١)</sup>.

واستهداف اللغة العربية هو في واقع الأمر استهداف للحضارة العربية والإسلامية، بوسائل شتى، منها: التحريض على النزعات المعادية للعروبة، والنزعة الفرعونية التي انتقدها الأمير شكيب أرسلان. فقد ظهرت هذه النزعات المعادية عند بعض الناشئة المصرية، بغية إعادة ارتباط مصر بالعهود القديمة، ممثلة في الحضارة الفرعونية، مع ميل إلى نفخ اليد من الانتماء الحضاري العربي، أخذة طابعاً تعصبياً، بحجة أنّه ليس على المصريين أن يتّبعوا ملّة ليست من سلالتهم، في إشارة إلى الإسلام، وهي حجة مدحوضة برأي الأمير شكيب أرسلان، لأن الإسلام دين لا يفرّق بين عربي وأعجمي، وأن مبدأه الأساسي التقوى، وأن النبي (ﷺ) الذي جاء به، لم يُبعث إلى العرب وحدهم، وإنما إلى البشرية جمعاء، فإذا كانت هناك مساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى، فقطعاً هي في الإسلام<sup>(١٢)</sup>.

(٩) الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص ٨٥ - ٨٧.

(١٠) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٦٦)، ص ٤.

(١١) للمزيد، انظر: عبد الرحمان بودرع [وآخرون]، اللغة وبناء الذات، سلسلة كتاب الأمة (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٤).

(١٢) لوثرروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض؛ تحقيق شكيب أرسلان، ج ٢ (بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٧٣)، ج ١، ص ١٦٨.

ومهما تزايد خصوم الوحدة العربية وتعاضمت قوتهم، فلا أحد يستطيع، في نظر الأمير شكيب أرسلان، أن يستحوذ على العرب المنتشرين في كل أنحاء العالم، فالمستقبل لهم، لأن المستقبل هو للأمم ذات الأعداد الكبيرة، والعرب يقدّر عددهم بسبعين مليوناً<sup>(\*)</sup>، وهم متصلون بعضهم ببعض من السوس<sup>(١٣)</sup> الأقصى إلى الأهواز<sup>(١٤)</sup>، ومن حلب (سورية) إلى الخرطوم (السودان)، ووراءهم مئتان وخمسون مليون مسلم يناصرونهم<sup>(١٥)</sup>.

## ثانياً: غرس فكرة الوحدة في الأذهان ونبذ الخلافات الشخصية

أوصى الأمير شكيب أرسلان في العام ١٩٢٩ بتكوين رأي عربي يقتنع بفكرة الوحدة، ويخدمها، ولا يبالي بالعوائق التي تعترضها، كالانقسامات الداخلية والأهواء الشخصية، اعتباراً بالألمان والإيطاليين الذين ظلوا لمئات السنين منقسمين ومتشاكسين، ولم يتمكنوا من تحقيق وحدة بلدانهم، إلا بتنمية الفكرة وتدريب شعوبهم لأمرائهم عليها، وحملهم على الانقياد لإرادة الأمة. فتألفت من تلك الإمارات المنقسمة، أمتان عظيمتان هما إيطاليا وألمانيا. والأمة العربية التي تعدّ عشرات الملايين من الأفراد، ليست، في اعتقاد شكيب أرسلان، بأقلّ منهما عدداً وذكاء وقوة، بل تتفوق عليهما في ذلك<sup>(١٦)</sup>.

وفضلاً على ذلك، حثّ شكيب أرسلان في رسائله المتبادلة مع كلّ من الملك فيصل والملك ابن سعود، على نبذ الأمور الشخصية، وتنزيه مشروع اتحاد العرب منها، إذ ينبغي – حسب – أن ينظر إلى الأمة ومصالحها بدل الأشخاص، فالأمير فيصل بن الحسين عدو لابن سعود لأسباب شخصية، لأن ابن سعود استولى على ملك آبائه، لكنهما تقابلا وتضافيا، بصفة أحدهما ملكاً للعراق، والآخر ملكاً للحجاز ونجد: فـ «المصلحة العربية قضت بهذا، وهما بهذا غلباها على الميول الشخصية، وهكذا ينبغي أن يكون، وقد بدأ هذان الملكان بأنفسهما»<sup>(١٧)</sup>. وفي السياق ذاته، سعى الأمير شكيب أرسلان إلى الإصلاح بين ملكي اليمن والسعودية، وحرّض ملك العراق على الاتحاد مع ملكي السعودية واليمن وجميع العرب، حفاظاً على الأمة، وتجديداً لمجدها، واستنهاضاً لهممها، فتعود إلى سالف عزّها<sup>(١٨)</sup>.

(\*) هكذا وردت في المرجع نظراً إلى اعتماده إحصائيات غير موثقة في تلك الفترة.

(١٣) السوس: نهر في جنوب المغرب الأقصى، طوله ١٨٠ كم، ينبع من سفح جبل طوبقال في الأطلس الأعلى، يروي سهل السوس جنوبي تارودانت، ويصبّ في المحيط الأطلسي جنوبي أكادير.

(١٤) الأهواز: مدينة في جنوب غربي إيران، عاصمة خوزستان، فيها النفط.

(١٥) الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص ٧١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(١٧) الطيب بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان وبين الحاج عبد السلام

بنونة (تونس: مطبعة دار الأمل، ١٩٨٠)، ص ١٢٤ – ١٢٥.

(١٨) أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، ص ٦٠.



ومنطلق الأمير شكيب أرسلان في ذلك أن الوحدة مشروع كبير لن يتحقق إلا بالتدرّج، وقد بيّن ذلك في العام ١٩٤٠ بقوله إنّه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وهو يوجّه مساعيه في هذا الاتجاه، وأنه منذ عشرين سنة، كان يتصل بكلّ من ملك السعودية وإمام اليمن وملك العراق من أجل هذه القضية، بينما كان أكبر قادة العرب يعارضونها بكلّ الطرق والوسائل، أو يقولون عنها إنّها خيال في خيال. وقد أقرّ بأن تلك الرسائل المتبادلة بينه وبين أولئك الزعماء الذين ذكرهم، تزيد على مئة وخمسين رسالة. ولم يكن ذلك من باب الفخر، وإنما رغبة منه لتأكيد جدّية مساعيه التي تعهّد بأنها لن تتوقف، إلا بإنجاز الوحدة واكتمال بنائها<sup>(١٩)</sup>.

وهكذا يكون الأمير شكيب أرسلان قد نصّح العرب الذي يأملون في الوحدة القومية الاقتداء بالنموذجين الألماني والإيطالي، في ما يتعلق بتهيئة الأذهان، حتّى تُستوعب الفكرة، وتتجاوز الخلافات والحزازات والحساسيات الشخصية والطائفية التي أضرت كثيراً بالعرب، وجعلتهم هدفاً سهل المنال لدى الاستعمار الأوروبي، بدون التقليل من الجهود العسكرية والسياسية والدبلوماسية التي بذلها قائدا الودحتين «بسمارك» و«كافور» داخلياً وخارجياً، والتي أثمرت ظهور دولتين جديدتين، هما الإمبراطورية الألمانية والمملكة الإيطالية، ساهمتا في إحداث تغيير كبير في الخارطة السياسية الأوروبية، وفي تحفيز القوميات الأخرى داخل القارة على النهضة، والتطلع إلى تحقيق أهدافها القومية<sup>(٢٠)</sup>.

### ثالثاً: التدرّج في الوحدة

جاء في رسالة بعث بها الأمير شكيب أرسلان إلى مفتي القدس الحاج أمين الحسيني في العام ١٩٣١، أن الحلف العربي مشروع لا ريب في أنّه لا يتم دفعة واحدة، لكنه وضع في الأساس، وأصبح واجباً على الأمة العربية أن تبذل المزيد من الجهود لأجل إكمال بنائه، فتحوّله إلى حقيقة بعد أن كان خيلاً. وخاصة أن المخلصين من العرب اتفقوا على وجوبه، وعلى أن يكون عربياً خالصاً. فالوحدة الألمانية بدأت باتفاقيات اقتصادية وإدارية، وظلّت تنمو وتتطور حوالى ثلاثين عاماً، حتّى أصبحت وحدة سياسية.

وقد انتقد الأمير شكيب أرسلان في رسالته الرأي القائل إن الجزء الناقص استقلاله لا يستطيع أن يتحالف مع الجزء التام استقلاله، لأن الغرض من التحالف أن يكتمل الناقص بالكامل، ويتقوى الجزء عن طريق الكل، لأننا لا ننتظر من الأجنبي أن يقول من تلقاء نفسه: «اليوم أكملت لكم استقلالكم». وعليه، يتوجب على العرب

(١٩) الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص ٩٩.

(٢٠) انظر: موسوعة تاريخ أوروبا العام، إشراف جورج ليفه وروان موسنييه، ترجمة حسين حيدر، ج ٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٥)، ج ٣: أوروبا من عام ١٧٨٩م حتّى أيامنا، ص ٣١٢ وما بعدها.

أن يبادروا إلى التحالف والتفاهم من أجل إعلاء شأن الأمة العربية.

كما فنّد صحة الرأي الذي يقول أصحابه بعدم إمكانية الحلف العربي، لأن الأمة العربية جاهلة، وأنه لا بُدَّ من أن يسبق ذلك تربية علمية، وأن العلم ضروري ومفيد في مثل هذه القضية. فأجاب بأن الحلف العربي هو في حاجة إلى العلم فعلاً، لكنه لا يشكل عائقاً أمامه، وأنه ليس ضرورياً أن تصل الأمة العربية إلى درجة الرقي الذي بلغته الأمة الألمانية حتى تستوعب أهمية الحلف، كما أن الجهل ليس هو الذي يجعلها لا تفقه معنى الاتحاد وضرورته، فحتى الحيوانات لها الشعور بحسّ الدفاع عن نفسها، وتتحد في مواجهة الخطر العام. ووفقاً لذلك، خلص إلى أنّه من كانت له مشكلة مع الوحدة العربية، فعليه أن يتحدث في موضوع آخر غير هذا<sup>(٢١)</sup>.

وفي لقائه في العام ١٩٣٠ مع الأمير فيصل، وقد دام عدة أيام، وبحث في عدة قضايا، ومنها قضية الاتحاد العربي، وكيفية البدء به بين سورية والعراق، والسعي إلى ضم ابن سعود إليه، استعرض الأمير شكيب أرسلان عدة وجوه ممكنة للاتحاد، هي: الاتحاد النمساوي - المجري، والاتحاد الألماني، والاتحاد السويسري، والاتحاد الأمريكي، وحثّ على الاقتداء بأحدها، مقترحاً البدء بالوحدة الجمركية، ثم توحيد المواصلات، والصحة، والنقد، والجوانب الاقتصادية، مع تكوين تحالف دفاعي عسكري، والعمل على توطيد العلاقات الودية بين العراق ونجد والحجاز<sup>(٢٢)</sup>.

ورأى الأمير شكيب أرسلان أن نواة الوحدة العربية تبدأ باتحاد سورية مع العراق كمملكة، ثمّ مع مملكة الحجاز ونجد حتى اليمن، مع احتفاظ كل مملكة باستقلالها. أما التحالف بينها، فيشمل الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية الخارجية، وهو أمر ممكن حصوله، في رأيه، لولا وجود فئة من العرب أنفسهم تعمل عكس ذلك: «وليس في هذا الاتحاد ملك يسود على ملك، بل كل ملك يبقى على حاله وعلى استقلاله، وإنما تقع المحالفة العسكرية والاقتصادية، وتكون سياستهم الخارجية بالتفاهم مع بعضهم البعض، وكل هذا ممكن لولا فساد المفسدين من العرب أنفسهم، فلا خوف على العرب إلا من العرب»<sup>(٢٣)</sup>.

واقترح في العام ١٩٤٠ على الدول الأربع: العراق والسعودية، اليمن ومصر، طرح موضوع الوحدة العربية، والدخول في تحالفات عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية، تجعل منها كتلة واحدة، تدافع عن مصالح العرب والشرق الإسلامي<sup>(٢٤)</sup>.

(٢١) نجيب البعيني، من أمير البيان شكيب أرسلان إلى كبار رجال العصر (بيروت: دار المناهل، ١٩٩٨)، ص ٢٦٧.

(٢٢) بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين شكيب أرسلان وبين الحاج عبد السلام بنونة، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢٣) البعيني، المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٢٤) الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام، ص ٦٧.

وهو في ذلك، يرمي إلى بناء وحدة عربية على مراحل، تشمل كل المجالات: المالية، والتجارية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والميدان العسكري. فلا تأخذ شكل الدولة الواحدة، وإنما دولاً متحدة تحافظ على شخصيتها السياسية، خاصة في سياستها الداخلية، بينما تتصرّف في سياستها الخارجية والدفاعية، وفقاً للمصالح العربية، وليس لمصلحتها القطرية.

ويعني الأمير شكيب أرسلان بذلك أن الوحدة تكون في خدمة الدولة القطرية، مثلما حدث في بلدان المغرب العربي التي وظّفت فيها الحركات الوطنية التحريرية فكرة الوحدة - وحدة المغرب العربي - على نحو إيجابي، في نضالها ضد الاستعمار الفرنسي. فلقد أدى التنسيق بين الحركات الوطنية في كل من الجزائر والمغرب وتونس إلى إفشال المخططات الاستعمارية في المنطقة، بداية من سياسة التجنيس، والسعي إلى الفصل بين العرب والبربر ... الخ، مما كانت نتيجته التزام تلك الحركات الوطنية بوحدة الهدف، وهو الاستقلال التام، زيادة على إنشاء هيئات للتنسيق تمثلت في مكتب «المغرب العربي»، ثم «لجنة تحرير المغرب العربي» في القاهرة<sup>(٢٥)</sup>.

وقد برّر اختياره للجزيرة العربية لتكون مهداً للوحدة، ومناطقاً للأمة العربية جمعاء، بكونها بقيت بعيدة عن الاحتلال، فلا يخفى على أحد أنه من السهل تقوية الموجود من استعادة المفقود، إشارة إلى البلدان العربية المحتلة<sup>(٢٦)</sup>. لكنه غيّر موقفه هذا في ما بعد، حيث اعتبر مصر البلد العربي الوحيد الذي يمكن اتخاذه أساساً لبناء «دولة عربية كبرى»، وهنا استخدم هذا المصطلح لأول مرة بدل «الوحدة» أو «الجامعة العربية» أو «الاتحاد» أو «الحلف العربي»، كما اعتاد على ذلك، مرجعاً السبب في ذلك، إلى كون مصر تضم جانباً كبيراً من أفريقيا، وجانباً أكبر من آسيا، ولتوفرها على جملة من العوامل التي تمثل مواد لبناء الدول الضخمة، كاليد العاملة الوفيرة، والأراضي الخصبة الغنية بالثروات ... الخ. وهي كلها وسائل بإمكانها أن تجعل مصر، بدون غيرها، قادرة على تحقيق آمال العرب، ولا ينقص في ذلك إلا الاستقلال الحقيقي<sup>(٢٧)</sup>.

واضح أنه بنى موقفه الأوّل على أسباب سياسية تتمثل في تمتع أغلب أقطار الجزيرة العربية بالاستقلال والسيادة السياسية، حيث إن أهميتها الاقتصادية لم تكن آنذاك قد ظهرت بعد، إذ إنّ اكتشاف وإنتاج الثروات النفطية الضخمة التي تحويها أراضيها كانا ما يزالان في بدايتهما.

أما موقف الأمير شكيب أرسلان، الثاني، فقد بناه على أسس جغرافية واستراتيجية واقتصادية، ممثلة في موقع مصر الجغرافي الذي يشكل همزة وصل بين قسمي الوطن العربي (المشرق والمغرب)، على خلاف الجزيرة العربية التي تقع في أقصى الشرق. وفي توفرها -

(٢٥) الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص ٩١ - ٩٢.

(٢٦) الشرباصي، المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٢٧) ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ج ٢، ص ١٢٠.

مصر – على عدد سكاني هائل هو الأول عربياً، يمكن توظيفه في قطاع الزراعة خاصة، في وجود مساحات شاسعة من الأراضي، تتميز بدرجة خصوبتها العالية، فضلاً على المياه الكافية التي يوفرها نهر النيل. كل ذلك من شأنه أن يحقق الاكتفاء الغذائي، ليس لمصر وحدها، بل لكل البلدان العربية، وهو ما قصده الأمير شكيب أرسلان.

ولأن الوحدة في نظره مشروع مقدس، فقد ذهب إلى أن الأمة العربية، سائرة في طريق تحقيقها، مهما وضع «اللثام» من أعدائها العوائق أمامه، والمتفلسفون من أبنائها. فالوحدة آتية بدون ريب، مهما طال الزمن، ولو بعد مئة عام، إذا جسدت أهم شروطها في أرض الواقع<sup>(٢٨)</sup>.

## خاتمة

ومجمل القول، بعد كل ما سبق، أن الأمير شكيب أرسلان، قد أظهر تفاؤلاً كبيراً بإمكانية تغيير واقع البلدان العربية في عصره، عن طريق الوحدة التي اعتبرها مفتاحاً لكل القضايا والتحديات المتمثلة في: الاستعمار، والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والحضاري. وربط نجاحهما بالافتتاع بالفكرة اقتناعاً تاماً، على المستويات القيادية والشعبية على حد سواء، وبسلوك المسلك الصحيح المؤدي إليها، باتخاذ قرارات عملية حازمة، بعيدة عن الارتجال والفوضى. وأكد أن العرب سائرون في تحقيق وحدتهم، رغم الصعوبات والعوائق الكثيرة التي تقف في سبيل ذلك.

وفي معرض حديثه عن الخطوات الواجب اتباعها لبناء الوحدة العربية، ذهب أرسلان إلى ضرورة تشكيل رأي عام يؤمن ويدافع ويسعى إلى الوحدة، بل هو الذي يدفع الحكام العرب إليها، كما حدث بالنسبة إلى الشعبين الألماني والإيطالي اللذين كانا العامل الأساسي في نجاح المشاريع الوحدوية في بلديهما، على خلاف ما كان يحدث من قبل، إذ كان السياسيون والقادة العسكريون والدينيون هم الذين تزعموها، ولم يهتموا بدور الرأي العام أو الشعب في ذلك.

وتبعاً لذلك، فقد شدد على أن منطلق الوحدة شعبي، وليس فئوياً أو نخبياً، ولعل هذا التوجه يشبه إلى حد كبير استراتيجية أبرز قادة الثورة التحريرية الجزائرية الشهيد العربي ابن مهيدي<sup>(\*)</sup> في توسيع نطاق الثورة التحريرية الجزائرية وتقوية شوكتها، حتى تعجز

(٢٨) شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف (دمشق: مطبعة ابن زيدون، ١٩٦٦)، ص ٢٠٧.

(\*) العربي بن مهيدي: من كبار القادة التاريخيين للثورة التحريرية، ولد في العام ١٩٢٣ بالقرب من مدينة عين أمليّة، من عائلة ريفيّة ميسورة الحال. كان في بداياته النضالية مقرباً من «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» بعد أن استقرّ في مدينة قسنطينة. وكان أحد مؤسسي «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» التي انبثقت عنها «جبهة التحرير الوطني». عُيّن قائداً للولاية الخامسة (القطاع الوهراني)، الذي تمكّن من تنظيمه تنظيمًا محكمًا. أصبح في العام ١٩٥٦ عضواً في «المجلس الوطني للثورة الجزائرية»، وكان من مهندسي معركة الجزائر، وقد أسرته وحدة من طرف المظليين الفرنسيين في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٥٧، =

الجيش الفرنسية المدججة بالسلاح والعتاد المتطور من القضاء عليها، وقد لخصها في قوله المشهور: «أرموا الثورة إلى الشارع فسيحتضنها الشعب»، لأن احتضان الجماهير العربية العريضة لمشروع الوحدة هو من أضمن العوامل لإنجاحها، بدون التقليل من أهمية العوامل الأخرى التي تحدث عنها.

وتميّز إرسال بكونه أعطى أهمية كبيرة للوحدة الثقافية من خلال استفاضته في الحديث عن ضرورة تعريب كل أوجه الحياة في المجتمع العربي، بدءاً بالألسنة، وانتهاء بمقتنيات البيوت، ربما لأنه ممن يعتقدون بأن معظم القضايا والإشكالات في الوطن العربي مصدرها ثقافي بالدرجة الأولى، وخاصة أن الثقافة شكّلت إحدى الأدوات المثلى لمنع أي تكتل عربي من قبل الاستعمار الغربي.

لقد دفعه حرصه على أن تنال اللغة العربية مكانتها في كل ما يتصل بشؤون الحياة في البلدان العربية إلى إيكال مهمة التعريب فقط إلى فئة حددها في الأئمة والوعاظ والكتّاب العرب والمسلمين، على أن يكون منهجهم ذا محتوى عربي إسلامي كامل. وتبعاً لذلك فقط، وضع التاريخ واللغة العربية والدين الإسلامي كمقومات أساسية للوحدة العربية.

هذا يقودنا إلى التساؤل عن تصويره الذي لم يفصح عنه، المتمثل في موقع عرب المشرق العربي المسيحيين في الوحدة العربية: هل كان التاريخ والدين الإسلاميان يشكلان ركيزة أساسية في العملية، وفقاً لما ذهب إليه؟

من الواضح أن إرسال قد ركّز على أهمية تماسك الأمة العربية بعناصر هويتها وشخصيتها التي تميّزها من الأمم الأخرى، منتقداً الرأي الشائع أن التقدم يعني التغريب، أي تقليد الغرب في كل شيء، مفصلاً عن مفهومه الخاص للتغريب، وهو اقتفاء آثار الأمم الغربية في طرق أسباب التفوق العلمي والصناعي والبحث، مستشهداً بشعوب وقوميات صغيرة في أوروبا، ظلّت محافظة على هويتها، رغم ما تعرّضت له من محاولات لإزابتها في قوالب أخرى، وبالنموذج الياباني الذي عدّه نموذجاً رائداً في التعامل مع الحضارة الغربية، حيث أخذ أسرار الرقي العلمي والمادي، وأدار نظره عن القيم الثقافية والأخلاقية الغربية، مفضلاً قيمه الذاتية، رغم إيغالها في القدم.

وفي ما سبق، ظلّ إرسال متمسكاً بالحديث باللغة العربية، حتّى في الدول الغربية والأمريكية والآسيوية التي أقام فيها أو زارها، رغم إتقانه للعديد من اللغات الأجنبية، كتابة وقراءة. والواقع أن إرسال قد اكتفى بالعموميات في قضية حفاظ الأمة العربية على مقوماتها الشخصية، على خلاف شريحة معتبرة من أقطاب جيله من المفكرين والمصلحين.

= وتمّ تعذيبه من بأمر من الجنرال «ماسو» (Massu)، ومن ثمّ اغتياله ليلة ٣ - ٤ آذار/ مارس ١٩٥٧، في مزرعة بمنطقة متيجة في ضواحي الجزائر العاصمة. انظر: محمد الشريف ولد الحسين، عناصر للذاكرة حتّى لا أحد ينسى: من المنظمة الخاصة ١٩٤٧م إلى استقلال الجزائر في ٥ جويلية ١٩٦٢م (الجزائر: دار القصبة للنشر، ٢٠٠٩)، ص ١٥، و Archives D'Algerie, «Dossiers de la Révolution algérienne», Massa éditions, no. 5 (avril 2005).

وتميّز إرسال أيضاً من غيره من قادة جيله في رسمه لشكل الوحدة على نحو عملي، عبر استعراضه للنماذج الوحودية التي أنجزت في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، خاصة منها النموذج الألماني الذي بدأ باتفاقيات اقتصادية وجمركية، وانتهى إلى وحدة شاملة، جمعت شمل الشعب الألماني الذي عانى الفرقة والانقسام والتجاذبات الإقليمية والدولية لعدة قرون. فاقترح مخططاً يشمل السياسة الخارجية، وتتويج كل ذلك بتحالف دفاعي عسكري، بدون إغفال أهمية زيادة العلاقات الودية التي من شأنها تعزيز الاتحاد وإبقاؤه في أعلى مستوياته، مع احتفاظ كل البلدان العربية بشخصيتها السياسية، أي سياستها الداخلية، بحكم الخصوصيات الحاصلة في هذا الجانب.

اختار إرسال في المرة الأولى بلاد الحجاز التي كانت في منأى عن الاستعمار والتدخلات الأجنبية، لتكون نواة وقائدة وحاضنة للوحدة العربية، ثم سورية والعراق، ثم الحجاز، ثم العراق والسعودية ومصر. ويمكن تفسير عدم استقراره على رأي واحد في هذه القضية، ربما، بسبب أنه كان يراعي الاعتبارات السياسية، أكثر من الاعتبارات التاريخية والاقتصادية والثقافية والجغرافية.

وبطبيعة الحال، كان نشاط الأمير ونضاله من أجل لمّ شمل العرب، يزعجان، بل يخيفان الدوائر الاستعمارية، خاصة الفرنسية والبريطانية منها، فراحت تراقب وتترصد كل حركاته وسكناته حيثما حلّ أو ارتحل، عن طريق جواسيسها وعملائها الذين كانوا يمدّون سفراءها وقناصلها بالتقارير اليومية عنه التي أصبح في الإمكان حالياً الاطلاع عليها في مراكز الأرشيف العربية<sup>(\*)</sup> والغربية □

(\*) على سبيل المثال، انظر: «Rapport du Ministère des affaires étrangères: Direction politiques et commerciales,» Les Archives nationales de Tunisie, Série A289-1/19, and «Rapport du Ministère des affaires étrangères: Direction politiques et commerciales,» Les Archives nationales de Tunisie, Série A289-1/19.